

نشأة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية

أحلام معمري

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

أحاول من خلال هذه الورقة البحثية تتبع المسيرة الزمنية لتطور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية مشيرة في ذلك لأهم العوامل السياسية و الاجتماعية التي أثرت في كل مرحلة من مراحل تطورها.

Résumé :

Cette recherche vise à suivre le parcours de développement du conte algérien écrit en arabe en précisant les facteurs politiques et sociaux les plus importants ayant laissé une influencer toutes ses phases de développement.

Abstract :

This study aims at following the development of the Algerian novel written in Arabic by precisising the most important political and social factors that have influenced each stage of its development.

تشير بعض الدراسات إلى أن أول بذرة قصصية كتبت في الأدب الجزائري تدخل في إطار جنس الرواية هي "حكاية العشاق في الحب و الاشتياق" لـ : " محمد مصطفى ابن إبراهيم " الذي يدعى الأمير مصطفى سنة 1849 م.¹ وإذا سلمنا بهذا فإن انطلاق الرواية العربية الحديثة تكون من الجزائر على حد قول "صالح مفقودة"،² غير أن اتسام هذا العمل بالضعف اللغوي و التقني جعل "عمر بن قينة" يحتفظ في اعتباره رواية أولى على مستوى الوطن العربي، بالرغم من أن هذه الحكاية كانت أول عمل قصصي انعكست فيه نتائج الحملة الفرنسية على الجزائر، فقد صادر المستعمر أملاك المؤلف و أملاك أسرته و اضطهدها.³

و الكتاب عبارة عن قصة تروي مغامرات عاطفية جرت بين فتاة جميلة من طبقة عالية و أمير شاب من أسرة احد دايات الجزائر، وهي مكتوبة بأسلوب رقيق جمع النثر الصافي القريب من الفصيح و الشعر الملحون.⁴ كما تجدر الإشارة إلى رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو الصادرة سنة 1947 وهو تاريخ صدورها الذي تأخر أربع سنوات عن تاريخ كتابتها.

¹ مصطفى محمد إبراهيم: حكاية العشاق في الحب و الاشتياق، تحقيق د: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط 2، ت1983م.

² ينظر: صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، ط1 ت 2003 م ص50 .

³ ينظر: عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة و الطويلة) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 50 .

⁴ الرواية الجزائرية مسارات و تجارب، مجلة الثقافة، ثقافية شاملة تصدر عن وزارة الاتصال و الثقافة فبراير 2004، العدد الجديد بعد 118.

وتدور أحداث هذه الرواية في الحجاز، غير أن الكاتب أراد أن يلفت أنظارنا ضمناً إلى قضية المرأة في الجزائر وما تتعرض له من اضطهاد وبؤس وقهر، لذلك أهداها إليها بهذه العبارات المفعمّة بالحنين و التوجع: ((إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب، من نعمة العلم، من نعمة الحرية، إلى تلك المخلوقة البائسة، المهملّة في هذا الوجود، إلى المرأة الجزائرية، أقدم هذه القصة تعزية وسلوى))⁵، وهذا الإهداء أثار عليه بعض الأصوات المحافظة التي اتهمته بالدعوة إلى تحريض المرأة على العصيان ((فاعتبروا القصة دعوة إلى تمرد المرأة وخروجها على طاعة الرجل))⁶

وقد كتب هذه الرواية على الطريقة الكلاسيكية المأخوذة عن الفكر الأرسطي القديم، الذي يرى أن الحركة الدرامية ينبغي أن تكون لها بداية (عرض)، ونقطة وسطى (عقدة)، ونهاية (حل). ويبقى هذا العمل الروائي - على هنائه - علامة فنية رائدة في بنائه ولغته وفي جرأته الفكرية التي اقتحمت هذه المغامرات الإبداعية خاصة إذا قارناه بما كان سائداً، "وبكفي أحمد رضا حوحو فخراً، أنه كان أول أديب يكتب باللغة العربية، ويطرق أبواب العالم الروائي"⁷. و إذا انتقلنا إلى فترة الخمسينيات نجد روايتي: الطالب "المنكوب" لـ: عبد الحميد الشافعي التي صدرت سنة 1951م.

وتدور أحداث هذه الرواية في تونس، وبطلها الطالب الجزائري المنكوب "عبد اللطيف" الذي يقع في حب فتاة تونسية اسمها "لطيفة"، وبعد معاناة وصراع وتعثر يبتسم الحظ له، وتتوثق العلاقة بين العاشقين، ويعود عبد اللطيف إلى بلاده وقد أنهى مرحلة ((التلمذة، ورأى لزاماً عليه أن يلج معمرة الحياة، ليكون لنفسه مالا وداراً وزوجة، وينتقل إلى طور الأبوة و التربية))⁸.

إن هذا العمل الروائي هو نموذج للسذاجة الفكرية الفنية، سواء أكان ذلك في مستوياته البنائية أو الشخصية أو في عقده وأحداثه، وهو مثقل بالتصريحات اللغوية و الأفكار المثالية⁹ وهو ما نفسره بأن هؤلاء الطلاب عجزوا عن تحقيق أي تفوق إبداعي لكون التعليم في تلك المرحلة ((كان تقليدياً وغير مهياً لإعداد الطالب لمستقبل أدبي حديث))¹⁰ مع نقص التجربة و الافتقار إلى الوعي الثقافي و الجمالي لخوض مغامرة الإبداع الروائي.

و الخلاصة أن رواية الطالب المنكوب، تعتبر خطوة أخرى إلى الوراء بالنسبة إلى الدرب المتطور - نسيباً- الذي رسمته و أسسته "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو.¹¹

أما الرواية الثانية التي ظهرت في هذه الفترة هي رواية "الحريق" لـ "نور الدين بو جدره" التي صدرت سنة 1957 م. بطلها شاب شجاع اسمه (علاوة) من مدينة سكيكدة، قرر الالتحاق بالثورة و الصعود إلى الجبل بعد قتل الفرنسيين لوالديه و لكي ينتقم لهما اضطر لأن يضحى بحبه، تاركا ابنة عمه و خطيبته "زهور"، التي تلتحق به بعد فترة وجيزة، لكن تشاء الأقدار أن تصاب بمرض وتموت بين يديه. قبل أن تصل إلى تونس لتعالج من مرض القلب. فيجن

⁵ الرواية ص 05 .

⁶ عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1978 ص: 35.

⁷ الأعرج واسيني: اتجاهات الرواية، ص 130 .

⁸ الرواية ص 63 .

⁹ ينظر إدريس بويديبة المرجع السابق ص 31.

¹⁰ بامية عايدة أديب ص 62.

¹¹ ينظر إدريس بويديبة مرجع سابق ص 32.

جنون "علاوة" ويهاجم الجنود الفرنسيين، ويستشهد بدوره في هذه المعركة، ويدفن الحبيبان في (خندق واحد)،¹² (حتى لا يقوم بينهما حاجز، فقد ضمهما الحب، وهما حيان يرزقان، فلم لا يضمهما الموت)).¹³

و الكاتب لم يكن يراعي الجوانب الفنية لنمو عمله الروائي كما قال: ((لم يكن في حسابي أن أولف كتابا سياسيا صرفا، ولكن بعد الدرس و التفكير رأيت أنه سيكون مملا، فاخترت له بطلين يقوم كل واحد منهما بدور المشاهد و الساخط و المتحمس المناضل)).¹⁴

ويبقى هذا النص أكثر تطورا من النصين الروائيين السابقين، "غادة أم القرى" و "الطالب المنكوب"، وقد كان بإمكان الكاتب أن يقدم نصا متماسكا، خاصة أنه يمتلك امتلاكاً جيدا اللغتين العربية و الفرنسية. ومن ثم فإن الأفق الفكري و اللغوي و الثقافي لهذا الأديب كان ينبغي أن يكون أكثر تمكنا في التعامل مع البنيات السردية و الفنية لعمله. ونسجل للكاتب نصاعته اللغوية، الممزوجة بالمرونة و البساطة، وهي لغة مناسبة قادرة على استيعاب تفاصيل السرد الروائي دون افتعال أو مشقة.¹⁵

أما في الستينيات (عقب الاستقلال)، فلا نكاد نعثر على عمل روائي مكتوب باللغة العربية، غير عمل واحد وهو "صوت الغرام" ل: محمد منيع. نظرا للظرف التاريخي الذي ساد تلك الفترة بكل مفارقاته الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية، إذ انشغل الجزائريون بمعركة البناء و التشييد غير أنه لا يمكن أن ننكر دور هذه المرحلة الهامة في تهيئة التربة الأولى التي ستنبت عليها الأعمال الأدبية الصادرة فيما بعد، خاصة مع التحولات الديمقراطية التي شهدتها بداية السبعينيات.

ويبلغ عدد صفحات هذه الرواية (262) صفحة، و تتميز عن الروايات السابقة أنها صدرت بعد الاستقلال ومع ذلك فهي في بنيتها ومضمونها لا تختلف كثيرا عن غيرها، فالموضوع الرئيسي الذي يحرك مركبتها السردية هو (الحب) الرومانسي في أبسط حوامله الفكرية و الوجدانية.¹⁶

وتدور أحداث الرواية في إحدى القرى المحافظة بالشرق الجزائري وبطلتها "قلة" (تقف جامدة مستغلقة تتلقى الأحداث كما تجيئها، وتستدير الحظ أسفة نادمة، ولا تعدو عواطفها و انفعالاتها أن تكون إحساسات داخلية مكبوتة، لا تتطلق إلا في أحلام اليقظة)).¹⁷

وعلى العموم فإن هذه الرواية قفزة متقدمة على الأعمال التي سبقتها، وكما يرى "واسيني الأعرج" فإن كاتبها قد حاول ونجح في تقديم تشكيل روائي مقبول إلى حد ما، يتجاوز ما جاء في أعمال "رضا حوحو و "عبد المجيد الشافعي"، ولكنه مقابل ذلك، يقف دون انجازات "وطار" و "ابن هدوقة".¹⁸

وكتقييم للكتابات التي سبقت السبعينيات نرى أنها لم تتطور صوب اتجاهات فنية واضحة، بل ظلت مجرد محاولات معزولة لم ترق إلى المستوى المطلوب، وهذا الموقف يتناسب و الظرف التاريخي السائد، و المدارس لهذه

¹² ينظر إدريس بوديبة المرجع السابق ص32.

¹³ الرواية ص97..

¹⁴ الرواية ص 100.

¹⁵ ينظر إدريس بوديبة المرجع السابق ص33.

بوديبة، ص 34.

¹⁷ الرواية ص 27.

¹⁸ ينظر: الأعرج واسيني، المرجع السابق ص 152.

النتائج يلاحظ سيطرة المضامين الانفعالية التي تمجد الأحاسيس السطحية، ولا نجد أي كاتب أو ناقد أثار - مثلا - مسألة الشكل الفني أو الجوانب الجمالية للنص التي تشغل فضاءه بالبرق، وتقدم له صيانة فنية متفوقة ومنسجمة.¹⁹ شهد الفن الروائي في السبعينيات تطورا وتوعا لم يعرف له مثيل من قبل، ومن أهم أقطاب الرواية الجزائرية في هذه الفترة:

الطاهر وطار - عبد الحميد بن هدوقة - رشيد بوجدره. وقد جسدت بداية السبعينيات المرحلة الفعلية التي شهدت القفزة الحقيقية للنهوض الروائي الفني في الجزائر، حيث ظهرت تباعا عدة أعمال روائية مثل: ((مالا تذروه الرياح))²⁰ ((وربح الجنوب))²¹، و ((اللاز))²² إضافة إلى رواية أخرى ذات أهمية متميزة وهي ((الزلزال))²³. فبطور أعمال (الطاهر وطار) بدأ النقد في الجزائر و المشرق ينظرون بجدية إلى عناصر القرد و التفوق التي طبعت أعماله الروائية، فتغيرت نظرة هؤلاء إلى الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية بعد أن كانت تنطلق من موقف الشفقة و الدعم العاطفي - باعتبارها تجربة هشة تحتاج إلى المؤازرة- فأصبحت تنتزع الإعجاب و التقدير، وذلك بهيمنتها على باقي الأجناس الأدبية في الجزائر فتصدرت مجال البحوث النقدية و التغطيات الصحفية و الإعلامية. فالسنوات العشر التي أعقبت الاستقلال مكنت الجزائريين من الانفتاح على العربية المعاصرة فلجأوا إلى الكتابة الروائية للتعبير عن الواقع الجزائري بكل تفاصيله وتعقيداته سواء بالعودة إلى مرحلة الثورة المسلحة أو بالغوص في الحياة المعيشية الجديدة التي بدأت ملامحها بالظهور عقب التغييرات الجديدة التي طرأت على الحياة السياسية و الثقافية و الاقتصادية.²⁴

في هذه الفترة (السبعينيات) لم تكن الظروف العامة و الذاتية مهيةا لكتابة نصوص روائية حديثة، وذلك لهيمنة النزعة المحافظة على كل مظاهر الحياة الثقافية فكان أقصى طموحها إعادة إنتاج الموروث الثقافي في أبسط صوره "باستثناء بعض الصرخات التي أطلقها "رمضان حمود" الذي ظل يطالب بالتجديد و النهوض الأدبي، غير أنها لم تجد آذانا صاغية"²⁵ وهذا لرفض أغلب الكتاب الانفتاح على التيارات المجددة

إضافة إلى الفقر الثقافي العام، و حالة الاغتراب اللغوي الذي يحسه المتقنون باللغة العربية، داخل مناخ تسيطر عليه اللغة الفرنسية، فكانت الكتابات في هذه المرحلة تخلو من الأنافة اللغوية، والظلال الشاعرية المشعة، وهو أمر طبيعي فالكتابة الأدبية مرتبطة بعمق احتكاكها بالعلوم الإنسانية الأخرى وهو ما لم يتوافر لهؤلاء الكتاب الذين يتعاطون الكتابة باللغة العربية، ويجدون صعوبات عديدة في نشر نصوصهم الروائية في كتاب مستقل، فلجأوا إلى كتابة القصة القصيرة، مستفيدين من المساحات الصغيرة التي تخصصها الجرائد لنشر إبداعاتهم. أضف إلى ذلك القطيعة الموجودة بين الأدب المكتوب باللغة العربية، و الأدب المكتوب باللغة الفرنسية التي ظلت قائمة، ولم يستفد الأدب المكتوب باللغة العربية من التجارب العالمية عبر الاحتكاك و المثاقفة قصد الوصول إلى امتلاك خطاب روائي ثري بإنجازاته و خصوصياته، لأن النقد كان غائبا و خاصة النقد بمفهومه الرؤيوي، فكل الكتابات النقدية السائدة وقتئذ كان

¹⁹ ينظر ادريس بوزيية، المرجع السابق ص37.

²⁰ عرار محمد: مالا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر طبعت لأول مرة سنة 1972.

²¹ ابن هدوقة عبد الحميد: ربح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر (بدون تاريخ) وقد ذكر أنه انتهى من كتابتها عام 1970 و نشرته سنة 1971.

²² وطار الطاهر: اللاز، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ظهرت سنة 1974.

²⁴ ينظر: إدريس بوزيية ص 37

همها الأكبر هو ترصد المواقف الفكرية و الزلات اللغوية من منظور ذاتي يفتقد إلى النظرة العلمية التي لا تنتظر للعمل سوى من زواياه الضيقة.²⁶

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت للنصوص الأولى المشار إليها (قبل السبعينيات) إلا أنها تبقى اللبنة الأولى التي مهدت لتكريس الخطاب الروائي الجزائري في السبعينيات وهو ما يؤكد الباحث الروسي ((روبرت لاند))²⁷ الذي يؤرخ الرواية الجزائرية منذ ظهور (غادة أم القرى) سنة 1947.

الهوامش:

1. الأمير مصطفى محمد إبراهيم: حكاية العشاق في الحب و الاشتياق، تحقيق د: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ط 2، 1983م.
2. ينظر: صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، ط1 ت 2003 م
3. ينظر: عمر بن قينة: دراسات في القصة الجزائرية (القصيرة و الطويلة) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 50
4. الرواية الجزائرية مسارات و تجارب، مجلة الثقافة، ثقافية شاملة تصدر عن وزارة الاتصال و الثقافة فبراير 2004، العدد الجديد بعد 118.
5. الرواية ص 05 .
6. عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1978 ص 35.
- الأعرج واسيني: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ت 1986 ، ص 130.
7. الرواية ص 63 .
8. ينظر إدريس بوديبة المرجع السابق ص 31.
9. عابدة أديب بامية ، تطور الادب القصصي الجزائري ترجمة محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 ص 62.
10. ينظر إدريس بوديبة مرجع سابق، ص 32.
11. ينظر إدريس بوديبة المرجع نفسه، ص 32.
12. الرواية ص 97.
13. الرواية ص 100.
14. ينظر إدريس بوديبة المرجع السابق ص 33.
15. ينظر: إدريس بوديبة، ص 34
16. الرواية ص 27.
17. ينظر: الأعرج واسيني، المرجع السابق ص 152
18. ينظر: إدريس بوديبة، ص 37.

²⁶ ينظر إدريس بوديبة المرجع السابق ص 37/38.

²⁷ ينظر: روبرت لاند، الموضوع الثوري في روايتي اللال و الزلال ترجمة: عبد العزيز بوباكير، مجلة التبئين، الجزائر، عدد 8، عام 1994 ص 38.

19. عرار محمد: مالا تدرؤه الرياح، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر طبعت لأول مرة سنة 1972.
20. ابن هذوقة عبد الحميد: ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر (بدون تاريخ) وقد ذكر أنه انتهى من كتابتها عام 1970 و نشرته سنة 1971.
21. وطار الطاهر: اللاز، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ظهرت سنة 1974.
22. الطاهر وطار، الزلزال، بيرقت الجزائر، دار العلم للملايين ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 1 1974
23. ينظر: إدريس بوزيية ص 40.
24. إدريس بوزيية ص 37.
25. ينظر إدريس بوزيية المرجع السابق ص38/37.
26. ينظر: روبرت لانداء، الموضوع الثوري في روايتي اللاز و الزلزال ترجمة: عبد العزيز بوباكير، مجلة التبيين، الجزائر، عدد 8، عام 1994 ص38.